غزوة تبوك[1]

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح : " فإن غزوة تبوك كانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف ، وعند ابن عائذ من حديث ابن عباس أنها كانت بعد الطائف بستة أشهر ، وليس مخالفاً لقول من قال في رجب إذا حذفنا الكسور ، لأنه ﷺ قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة " [2]، " وكان آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ تبوك." [3] وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق ، ويقال بين المدينة وبينه أربع عشرة مرحلة .

لقد كانت غزوة فتح مكة فاصلة بين الحق والباطل ، لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماما ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتهت المتاعب الداخلية ، واستراح المسلمون لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

تسلسل الأحداث قبل غزوة تبوك :

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان — أكبر قوة عسكرية في ذلك الحين — وقد كانت بدايات التعرض للمسلمين بقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي — على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان سفيراً يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، – والسفير في جميع الأديان والأعراف له حصانة – وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداماً عنيفاً في مؤتة ، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريبهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة . ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أنه يجب القضاء على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة حتى أخذ يهيء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

---

[1] –تبوك اسم مشهور في القديم والحديث ، وقد وصفها ياقوت في معجم البلدان فقال : تبوك بالفتح ثم بالضم وواو ساكنة ، وكان موضعاً بين وادي القرى والشام ، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة . وقال أيضاً :" وتبوك تقع بين جبل حسمى وجبل شرورى ، حسمى غربيها وشرورى شرقيها ، وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة ". معجم البلدان لياقوت الحموي ١٤/٢ .

[2] – فتح الباري ١١١/٨ . وانظر سيرة ابن هشام ١٦٩/٤ . زاد المعاد ٥٢٦/٣ .

[3] – من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٦٦/٣ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

فهل كان النبي ﷺ غافلاً عن الخطر المحدق بدعوته من جهة الشمال ، وعلى يد أكبر امبراطورية في ذلك الحين ؟!

وهل انتظر النبي ﷺ عدوه حتى يباغته في أرضه وفي عقر داره ؟!

وهل استعد النبي ﷺ والمسلمون ، وانتظروا حتى يضرب العدو ضربته ، ثم يردون عله ؟!

وهل كان سلاح المخابرات مسلطاً على صحابته ومن يساكنهم في المدينة المنورة ، وتاركاً عدوه دون أن يعرف عنه شيئاً ، ولا عن عَدَده وعُدَده .

هل كان يترك زمام المبادرة بيد عدوه ليختار المكان والزمان ، دون أن يكون للمسلمين يد في ذلك ، ويكون فعل المسلمين هو ردود أفعال ؟!

كل هذه الأسئلة وغيرها كثير ، تجيب عليها أسباب غزوة تبوك ، وتحركات النبي ﷺ والمسلمين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لأخذ زمام المبادرة ومباغتة العدو قبل أن يباغت المسلمين.

سبب غزوة تبوك :

لقد بلغ النبي ﷺ أنباء خطيرة عن تحركات تعتزم الروم وحلفاؤهم العرب ، القيام بها ضد الدولة الإسلامية الناشئة قبل أن يشتد ساعدها ، وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية ، وتشكل خطراً على الوجود النصراني في بلاد الشام ، وقد قامت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء . وهذا ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا : بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا ، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من الغساسنة من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء ، وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير ، يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهم في مشربة له ، ولم يفطن الصحابة رضوان الله عليهم إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق. يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وهو يروي هذه القصة فيما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما :".. ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرُ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ فَقَالَ إِنِّي كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ ...وَكُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النِّعَالَ لِغَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَنَائِمٌ هُوَ

فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَتْ غَسَّانُ قَالَ لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ ..." الحديث [٤]

كما ورد عند الإمام البخاري رحمه الله رواية أخرى تبين مدى ما انتاب الصحابة من الهم والتفكير في ذلك فعن " ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ ... قَالَ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ ...وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا فَقَدْ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ فَإِذَا صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ افْتَحْ افْتَحْ فَقُلْتُ جَاءَ الْغَسَّانِيُّ فَقَالَ بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْوَاجَهُ ." [٥]

هذا هو حال المسلمين بالمدينة المنورة ، قبل غزوة تبوك ، وهم على تحفز وتخوف في آنٍ واحد . ولا يغيب عن ذهن دارس أن الرومان كانوا يستخدمون نصارى العرب في قتالهم لمن عاداهم من الفرس أو المسلمين .

بل لا يستبعد أن يكون النصارى من العرب هم الذين كتبوا إلى هرقل ، يألبونه على النبي ﷺ والمسلمين ، ويظهرون لهرقل الولاء والحرص على حدود دولتهم . يؤيد هذا ما روى الطبراني من حديث عمران بن حصين قال : "كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل : أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظمائهم يقال له قباذ ، وجهز معه أربعين ألفا ، فبلغ النبي ﷺ ذلك ، ولم يكن للناس قوة ، وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام فقال : يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، قال فسمعته يقول :" لا يضر عثمان ما عمل بعدها " [٦].

وهناك سبب آخر ذكره أبو سعيد في " شرف المصطفى " والبيهقي في " الدلائل " من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم (أن اليهود قالوا : يا أبا القاسم إن كنت صادقا فالحق بالشام فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فغزا تبوك لا يريد إلا الشام ، فبلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بني إسرائيل (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها)[٧] الآية . انتهى.[٨]

[٤] – البخاري في صحيحه ، كتاب المظالم والغصب ، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة على السطوح ٢٤٦٨ ، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق ، باب الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى :" وإن تظاهرا عليه.." ٢٧٠٥ ، ٢٧٠٧ والترمذي في سننه ، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب ومن سورة التحريم رقم الحديث ٣٢٤٠ .

[٥] – البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب " تبتغي مرضاة أزواجك " ، " قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ."

[٦] – وأخرجه الترمذي من حديث عبدالرحمن بن خباب السلمي رقم ٣٧٠١ نحوه . والحاكم ١٠٢/٣ وصححه ووافقه الذهبي .

[٧] – سورة الإسراء آية رقم ٧٦ .

[٨] – وإسناده حسن مع كونه مرسلا .أ. هـ . عن كتاب الأساس في السنة وفقهها ، السيرة النبوية ، للأستاذ سعيد حوى ط ٣ ، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م ، ٢ | ٩٧٢ .

فكل هذه الأسباب يمكن أن تجتمع في آنٍ واحد وتكون سبباً ، كما يمكن أن يجمع بينها ، حيث لا خلاف في عداء أهلها جميعاً للدعوة الإسلامية .

وكان الوقت صيفاً و والصحراء تحترق ناراً ، والبلاد تعاني جدباً ومحلاً ، والطريق طويل ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص لقطع آلاف الأميال عبر الصحراء ، وقتال قوم هم سادة الدنيا ، ومحنة مؤتة فوق هذا كله ، ليست بعيدة عن الأذهان ، لكن منطق الرسول ﷺ يفوق التحديات ويتجاوز المصاعب ، لأن السكوت على التحرك الروماني النصراني معناه الانـدحار ، وانتظارهم لكي يوجهوا (هم) ضربتهم معناه الانتحار ، فلا بد إذن من التجهز بسرعة، وتولي زمام المبادرة ، والانطلاق عبر المتاعب والمصاعب للرد على تحدي سيدة العالم آنذاك ، وإشعار العرب الخاضعين لها أن هناك دولة ثانية وكلمة أخرى .

فإذا كان الروم قد عبؤوا كل قواتهم في الأرض العربية للمواجهة ، فلا بد للمسلمين أن يعبئوا قواتهم كذلك .

وبدأ رسول الله ﷺ يحشد القوة المستطاعة ، ويحث المؤمنين على الإنفاق ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم ، وحيث إن المسافة طويلة ، والمواجهة صعبة ، فقد أعلن ﷺ ابتداءً عن اتجاه الغزوة، مع أنه ﷺ كان من عادته أن يموّه ويعمّي على الجهة التي يريد . وما ذاك إلا لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم ، وحثهم على الجهاد ورغب فيه . ثم ما لبث أن انطلق في رجب بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة حتى ذلك الحين ، قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً ، تصحبها عشرة آلاف فرس ، واثنا عشر ألف بعير ، [٩] مستخلفاً على أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنه [١٠]، ومستعملاً على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ،وقيل سباع بن عرفطة رضي الله عنه [١١]ودافعاً لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، ورايته إلى الزبير رضي الله عنه.

وقد كانت غزوة تبوك في سنة شديدة على المسلمين ، فهاهو ابن عباس رضى الله عنهماقال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : حدثنا عن شأن العسرة فقال عمر : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويضعه على بطنه ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء خيراً ، فادع . فقال النبي ﷺ :" أتحب ذلك يا أبا بكر ؟!" قال : نعم : فرفع رسول الله ﷺ يديه فلم يرجعهما

---

[٩] – إمتاع الأسماع للمقريزي ٤٥٠/١ .

[١٠] – انظر سيرة ابن هشام ١٧٣/٤–١٧٤ ، وتاريخ الطبري ١٠١/٣–١٠٤ ، وابن سعد في الطبقات ١١٨/١/٢–١١٩ ، والواقدي في مغازيه ٩٨٩/٣–٩٩١ .والسيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ١٢/٤ .

[١١] – انظر سيرة ابن هشام ١٧٣/٤.

حتى قالت السماء ، فأظلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت عن العسكر . [12]

وقد ذكر ابن إسحاق من طريق محمود بن لبيد عن رجال من بني عبد الأشهل :" قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال : نعم والله ، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ، ومن عمه وفي عشيرته ، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك . ثم قال محمود : لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه ، كان يسير مع رسول الله ﷺ حين سار ، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان ، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا ، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك هل بعد هذا من شيء؟! فقال سحابة مارة ! .. وذكر أن ناقة رسول الله ﷺ ضلَّت فذهبوا في طلبها ، فقال رسول الله ﷺ لعمارة بن حزم الأنصاري – وكان عنده :" إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ! وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلَّني الله عليها ، هي في الوادي قد حبستها شجرة بزمامها ". فانطلقوا فجاءوا بها ، فرجع عمارة إلى رحله ، فحدثهم عما جاء رسول الله ﷺ من خبر الرجل ، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة : إنما قال ذلك زيد بن اللُّصَيت ، وكان في رحل عمارة قبل أن يأتي ، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول : إن في رحلى لداهية وأنا لا أدري ، اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني . فقال بعض الناس : إن زيداً تاب ، وقال بعضهم : لم يزل مصرَّاً حتى هلك . [13]

وهاهم الصحابة رضوان الله عليهم يذكرون لنا ما قد أصاب جيش رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ، فقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده قال :حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ شَكَّ الْأَعْمَشُ قَالَ لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْعَلُوا فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا قَلَّ الظَّهْرُ وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ ثُمَّ ادْعُ لَهُمْ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ ثُمَّ دَعَاهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ الذُّرَةِ وَالْآخَرُ بِكَفِّ التَّمْرِ وَالْآخَرُ بِالْكِسْرَةِ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطْعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ قَالَ فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ

---

[12] –كشف الأستار ٢٥٤/٢ ، رقم ١٨٤١ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٤/٦: رواه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجال البزار ثقات . وابن حبان في موارد الظمآن حديث رقم ١٧٠٧ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٢٣١/٥ . وانظر السيرة النبوية لابن كثير ١٦/٤ ، وقال ابن كثير :" إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه . قال الأستاذ ابراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية الطبعةالأولى ١٩٩٥م ص٤٧٠ :" الحديث حسن والله أعلم ".

[13] – سيرة النبي لابن هشام ١٧٨/٤ ، والطبري في تاريخه ١٤٥/٣ ، والبيهقي في الدلائل٢٣٢/٥ انظر السير ة النبوية لابن كثير ١٦/٤–١٧ كلهم من طريق ابن اسحاق به وقد صرح ابن اسحاق بالتحديث .قال الأستاذ إبراهيم العلي :" وإسناده رجال ثقات ولا يضر جهالة الصحابة وهم من بني عبد الأشهل ، ومحمود بن لبيد من صغار الصحابة " صحيح السيرة ٤٧١ –٤٧٢ .

حَتَّى مَا تَرَكُوا مِنْ الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلَّا مَلَئُوهُ وَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَتْ مِنْهُ فَضْلَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ فَتُحْجَبَ عَنْهُ الْجَنَّةُ". [14]

وقد أخطأ اليعقوبي [15] في قوله متحدثاً عن غزوة تبوك أن الرسول ﷺ خرج إلى أرض الشام " يطلب بدم جعفر بن أبي طالب " بينما يشير سياق الأحداث ، وحجم التحرك العسكري ، وطبيعة الظروف السياسية إلى أن الأمر أكبر بكثير من مجرد هجمة ثأرية لمقتل رجل من المسلمين . وهذا الخطأ يحدث كثيراً عند من لم يتشربوا فقه الدعوة الإسلامية الغراء ، مثلهم مثل من يتهمون البطل صلاح الدين الأيوبي في تحريره لأرض الإسراء والمعراج ، نتيجة اعتداء الصليبيين على امرأة من المسلمين ، يزعم أولئك أن البطل صلاح الدين كان يحبها وقد أسرها الصليبيون . وإن كان الأمر ليس هيناً أن يأسر الكفار امرأة من المسلمين فقد جند أمير المؤمنين المعتصم بالله جيش عمورية لتحرير امرأة من المسلمين أسرها الكفار ، ولكن تحرير الأرض من رجس الكفار هو الأصل الذي قام من أجله رسول الله ﷺ ونسج على منواله ، البطل صلاح الدين رحمه الله .

واستجاب الصحابة إلى نداء رسول الله ﷺ في النفقة لغزوة تبوك وهو جيش العسرة ، وتسابقوا إلى امتثال أمره ﷺ ، فقاموا يتجهزون بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة — إلا الذين في قلوبهم مرض ، وإلا ثلاثة نفر وهم الذين تيب عليهم رضوان الله عليهم — ولم يمسك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون " الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ". [16]

ومن أين يزود هذا الجيش بالمال ؟! إنه يحتاج إلى ميزانية سنوية عامة ، وقد سدها أفراد أفذاذ أغنياء . حملوا أعباء التعبئة المادية ، فهاهو الصديق ﷺ السابق في كل شيء " أول من حمل صدقته ، جاء بماله كله ، أربعة آلاف درهم . فقال له رسول الله ﷺ :" هل أبقيت شيئاً ؟ قال : الله ورسوله ! وجاء عمر ﷺ بنصف ماله .. وحمل العباس مالاً يقال : إنه تسعون ألفاً ، وحمل طلحة بن عبيدالله مالاً ، وحمل عبدالرحمن بن عوف مائتي أوقية ، وحمل سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً ، وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر ، وجهز عثمان بن عفان ﷺ ثلث ذلك الجيش ، فكان من

---

[14] – مسند الإمام أحمد ٤٢١/٢ ،١١/٣ ، وفي الفتح الرباني للساعاتي ١٩٦/٢١-١٩٧ رقم ٢٧ ، والحديث صحيح ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ،كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، حديث رقم ٢٧ ، وقد ذكر عنده دون شك في الصحابي وهو أبو هريرة ، وابن مندة في كتاب الإيمان حديث رقم ٣٦ .

[15] – أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح اليعقوبي (ت٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، طبعة ١٩٦٤م ، ٥٦/٢ .

[16] – سورة التوبة آية ٧٩ .

أكثرهم نفقة ، حتى كفى ثلث ذلك الجيش مؤونتهم ، حتى إن كان ليقال : ما بقيت له حاجة !! فجاء بألف دينار ففرغها في حجر النبي ﷺ ، فجعل يقلبها ويقول :" ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم ". قالها مراراً . ورغب عليه السلام أهل الغنى في الخير والمعروف . فتبادر المسلمون إلى ذلك ، حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تتعقبانه ، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج ، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي النبي ﷺ المسك [١٧]، والمعاضد [١٨]، والخلاخل ، والأقرطة ، والخواتم ، والخدمات [١٩]."[٢٠]

هاهو عثمان بن عفان ﷺ يجهز لوحده ثلث جيش العسرة ، ويكفيه فخراً أن يكسب رضى الله ورضى رسوله ﷺ ــ فأين أغنياء اليوم من أغنياء خير القرون – وهذه مساهمة عامة اشترك فيها الغني والفقير ، والرجل والمرأة ، وبمثل هؤلاء المساهمين وهذه المساهمات تنتزع الحقوق ولا تستجدى، وبمثل هؤلاء يصبح المجتمع الإسلامي كله أسرة واحدة . فعندما يرى الفقير منهم الغني يبذل في سبيل الدعوة نفسه وماله ، فما الذي يمنع بقية الناس أن يقدموا ما لديهم ، وأن يبذلوا النفس والنفيس ، مع قائدهم رسول الله ﷺ . ومجتمعنا اليوم لهو في حاجة ماسة إلى أن يتعلم من هذا المجتمع النبوي الكريم ، المستوى العالي الذي بلغه في التربية ، حتى أصبحت مرضاة الله سبحانه وتعالى ، هي أعلى وأغلى ما ينظرون إليه في حياتهم الدنيا .

روى الإمام الترمذي رحمه الله عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ .. حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ."[٢١]

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَوْقَ دَارِهِ ثُمَّ قَالَ أُذَكِّرُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ حِرَاءَ حِينَ انْتَفَضَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثْبُتْ حِرَاءُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ قَالُوا نَعَمْ قَالَ أُذَكِّرُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ مَنْ يُنْفِقُ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَةً وَالنَّاسُ مُجْهَدُونَ مُعْسِرُونَ فَجَهَّزْتُ ذَلِكَ الْجَيْشَ قَالُوا نَعَمْ ثُمَّ

[١٧] – المسك : جمع مسكة : وهي السوار تجعله المرأة في يديها ، وإنما يكون من الذبل والعاج .

[١٨] – المعضدة : الدملج يكون كالسوار تجعله على عضدها بين الكتف والمرفق .

[١٩] – الخدمة : الخلخال تجعله في رجلها .

[٢٠] – إمتاع الأسماع للمقريزي ١/٤٤٦-٤٤٧ بتصرف .

[٢١] – أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ رقم ٣٧٠١ ، ٥/٦٢٢ ، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٦٣ وإسناده حسن ، والحاكم ٣/١٠٢ وصححه ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية ١/٥٩ ، وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير في السيرة ٤/٧ .

قَالَ أُذَكِّرُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ بِئْرَ رُومَةَ لَمْ يَكُنْ يَشْرَبُ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا بِثَمَنٍ فَابْتَعْتُهَا فَجَعَلْتُهَا لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَابْنِ السَّبِيلِ قَالُوا اللَّهُمَّ نَعَمْ وَأَشْيَاءَ عَدَّدَهَا." [٢٢]

كما أن بعض الصحابة لم يجدوا ما ينفقون ، ولا ما يحملهم إلى البلوغ إلى تبوك ، فقد أرسلوا أبا موسى الأشعري ﷺ إلى النبي ﷺ ليحملهم ، حتى لا يفوتهم أجر الغزو في سبيل الله . فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ الْحُمْلَانَ لَهُمْ إِذْ هُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلُونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضْبَانُ وَلَا أَشْعُرُ وَرَجَعْتُ حَزِينًا مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَيَّ فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمْ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا سُوَيْعَةً إِذْ سَمِعْتُ بِلَالًا يُنَادِي أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ فَأَجَبْتُهُ فَقَالَ أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوكَ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ خُذْ هَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ وَهَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ لِسِتَّةِ أَبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِنْ سَعْدٍ فَانْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ أَوْ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ فَارْكَبُوهُنَّ فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِمْ بِهِنَّ فَقُلْتُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدَعُكُمْ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَظُنُّوا أَنِّي حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا لَمْ يَقُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ إِنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ وَلَنَفْعَلَنَّ مَا أَحْبَبْتَ فَانْطَلَقَ أَبُو مُوسَى بِنَفَرٍ مِنْهُمْ حَتَّى أَتَوْا الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْعَهُ إِيَّاهُمْ ثُمَّ إِعْطَاءَهُمْ بَعْدُ فَحَدَّثُوهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ أَبُو مُوسَى سواء . [٢٣]

وقد وصل الأمر إلى أن يسأل أحدهم من يحمله وله سهمه ، كما فعل واثلة بن الأسقع ﷺ ، فقد أخرج أبو داود في سننه عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَخَرَجْتُ إِلَى أَهْلِي فَأَقْبَلْتُ وَقَدْ خَرَجَ أَوَّلُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطَفِقْتُ فِي الْمَدِينَةِ أُنَادِي أَلَا مَنْ يَحْمِلُ رَجُلًا لَهُ سَهْمُهُ فَنَادَى شَيْخٌ مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ لَنَا سَهْمُهُ عَلَى أَنْ نَحْمِلَهُ عَقَبَةً وَطَعَامُهُ مَعَنَا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَ خَيْرِ صَاحِبٍ حَتَّى أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَأَصَابَنِي قَلَائِصُ فَسُقْتُهُنَّ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَخَرَجَ فَقَعَدَ عَلَى حَقِيبَةٍ مِنْ حَقَائِبِ إِبِلِهِ ثُمَّ قَالَ سُقْهُنَّ مُدْبِرَاتٍ ثُمَّ

---

[٢٢] – المصدر الترمذي في المصدر السابق ٥/٦٢١ ، وقال أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عَنْ عُثْمَانَ . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة :" وجاء من طرق كثيرة شهيرة صحيحة عن عثمان أنه لما حصروه أنشد الصحابة في أشياء منها تجهيز جيش العسرة ". ٢/٤٥٥ .

[٢٣] – صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة رقم الحديث ٤٤٢٥ ، ٨|١١٠ . وصحيح مسلم في كتاب الأيمان باب ندب من حلف يميناً ، فرأى غيرها خيراً منها ، أن يأتي الذي هن خير ، ويكفر عن يمينه ، رقم الحديث ١٦٤٩ ٣|١٢٦٩ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٢١٦-٢١٧ .

قَالَ سُقْهُنَّ مُقْبِلَاتٍ فَقَالَ مَا أَرَى قَلَائِصَكَ إِلَّا كِرَامًا قَالَ إِنَّمَا هِيَ غَنِيمَتُكَ الَّتِي شَرَطْتُ لَكَ قَالَ خُذْ قَلَائِصَكَ يَا ابْنَ أَخِي فَغَيْرَ سَهْمِكَ أَرَدْنَا ".[٢٤]

بل لا يعجب الإنسان إذا وجد نماذج فذة في جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فهاهو أحدهم لا يجد ما ينفقه في جيش العسرة ، ولا ما يُحمل عليه ، فيتصدق على المسلمين بما له عليهم من مظالم . حتى لا يقول أحد : إني أعدم كل شيء ، فيبقى هناك الدعاء المخلص لله سبحانه وتعالى ، والتصدق بالأشياء المعنوية ، كالمظالم المعنوية ، فهي حقوق ولها أثمانها والتي لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى . فقد ذكر ابن كثير ما زاده يونس بن بكير عن ابن إسحاق : وأما عُلبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض . ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ : " أين المتصدق هذه الليلة ؟ " فلم يقم أحد ، ثم قال :" أين المتصدق فليقم " فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ :" أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة !".[٢٥]

أعمال المنافقين في غزوة تبوك : لقد ذكرت في الوحدة العاشرة (المنافقون).

خرصه ﷺ لحديقة امرأة ، وإخباره ﷺ بالإعصار ، وتحذير الصحابة من القيام :

لقد كان رسول الله ﷺ يخبر الصحابة بالآيات والمعجزات ، ويحذهم من الأخطار التي تعترضهم . مصداق ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ فَأَتَيْنَا وَادِيَ الْقُرَى عَلَى حَدِيقَةٍ لِامْرَأَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْرُصُوهَا فَخَرَصْنَاهَا وَخَرَصَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ وَقَالَ أَحْصِيهَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَانْطَلَقْنَا حَتَّى قَدِمْنَا تَبُوكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَتَهُبُّ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئٍ وَجَاءَ رَسُولُ ابْنِ الْعَلْمَاءِ صَاحِبِ أَيْلَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ وَأَهْدَى لَهُ بَغْلَةً بَيْضَاءَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْدَى لَهُ بُرْدًا ثُمَّ أَقْبَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا وَادِيَ الْقُرَى فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَةَ عَنْ حَدِيقَتِهَا كَمْ بَلَغَ ثَمَرُهَا فَقَالَتْ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي مُسْرِعٌ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَلْيُسْرِعْ مَعِيَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَمْكُثْ فَخَرَجْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ وَهُوَ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ خَيْرَ دُورِ الْأَنْصَارِ دَارُ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ثُمَّ دَارُ

[٢٤] – أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجهاد باب في الرجل يكري دابته على النصف أو السهم ٣ | ٥٥ ، بسند حسنه بعضهم .

[٢٥] – السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ٩/٤ ، حديث صحيح ورد مسنداً وموصولاً كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٤٩٣/٢ ، من حديث مجمع بن جارية أو من حديث عمرو بن عوف وأبي عبس بن جبر ، ومن حديث علبة بن زيد نفسه .

بَنِي سَاعِدَةَ وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ فَلَحِقَنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ أَبُو أُسَيْدٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيَّرَ دُورَ الْأَنْصَارِ فَجَعَلَنَا آخِرًا فَأَدْرَكَ سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَيَّرْتَ دُورَ الْأَنْصَارِ فَجَعَلْتَنَا آخِرًا فَقَالَ أَوَ لَيْسَ بِحَسْبِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ الْخِيَارِ .[٢٦]

مرور الجيش بالحجر (أرض ثمود):

ولما مرَّ جيش رسول الله ﷺ بأرض الحجر (أرض ثمود) حث السير ، وأمر صحابته رضوا الله عليهم أجمعين ألا يدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا باكين . مصداق ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِجْرِ قَالَ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ [٢٧]

كما أمرهم أن يهريقوا ما استقوا من آبارهم ، وأن يعلفوا عجينهم الذي عجنوه بهذا الماء إبلهم التي كانت معهم ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح عليه السلام . مصداق ذلك ما أخرجه البخاري رحمه الله أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحِجْرِ أَرْضِ ثَمُودَ فَاسْتَقَوْا مِنْ آبَارِهَا وَعَجَنُوا بِهِ الْعَجِينَ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا وَيَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ".[٢٨]

يقول ابن كثير رحمه الله : "كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام :

مأمورون مأجورون ، كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وابن أم مكثوم ، وقد تخلفوا بأمر رسول الله ﷺ .

معذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون ، وهم البكاؤون (أي الذين لم يجدوا ما ينفقون لجهادهم) . وهؤلاء قد ورد فيهم عن المصطفى ﷺ فيما رواه البخاري رحمه الله عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ

---

[٢٦] – أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة ، باب خرص التمر ٣٤٣/٣ ، ومسلم في صحيحه واللفظ له في كتاب الفضائل باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ١٧٨٥/٤ .

[٢٧] – البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر ١٢٥/٨ ، وفي الأنبياء ، باب قوله تعالى :" وإلى ثمود أخاهم صالحاً" حديث رقم ٣٣٨١ ، ٣٧٨/٦ . ومسلم في صحيحه نحوه في كتاب الزهد والرقائق ، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين حديث رقم ٢٩٨٠ ، ٢٢٨٥/٤ ، وفي المسند لأحمد ٩/٢ ،٥٨ ،٦٦ ،٧٢ ،٧٤ ،٩١ ،٩٦ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، والبيهقي في الدلائل ٢٣٤/٥ .

[٢٨] – البخاري في صحيحه ، في كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى (سورة الأعراف آيه رقم ٧٣) :"وإلى ثمود أخاهم شعيا " وقوله (سورة الحجر ، آية رقم ٨٠):"كذب أصحاب الحجر " . ٣٧٨/٦ ، ومسلم في صحيحه واللفظ له في كتاب الزهد والرقائق ، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين ٢٢٨٦/٤ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنْ الْمَدِينَةِ فَقَالَ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ.[٢٩]

وعصاة مذنبون وهم الثلاثة (كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع) وقد تاب الله عليهم ، وأبو لبابة وأصحابه المذكورون .

وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون .

قصة أبي خيثمة ولحوقه بالجيش في تبوك :

لم يتخلف أحد من المؤمنين الصادقين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من غير عذر ، سوى أربعة نفر ، كلهم من الأنصار ، لا عن شك وارتياب ، وإنما أدركهم الضعف البشري ، وأثر عليهم أكثر من غيرهم ، وهؤلاء هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة رضى الله عنهم .

أما أبو خيثمة فقد تغلب على ضعفه البشري أمام مغريات الحياة ، فسارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ ، أما الثلاثة الآخرون ، فقد تخلفوا في المدينة وقعد بهم الضعف البشري ، يقولون كل يوم نلحق بالرسول ﷺ حتى انتهت مهمة الرسول في تبوك ، وعاد إلى المدينة فعاقبهم بالمقاطعة .

قال ابن اسحاق رحمه الله :" ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبرَّدت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : رسول الله ﷺ في الضحِّ[٣٠] والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيَّأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟!! ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ . فهيِّئا لي زاداً . ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك .

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وَهبٍ الجُمحيُّ في الطريق يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لي ذنباً فلا عليك أن تَخَلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ :"كن أبا خيثمة ". فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة .

[٢٩] – البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير ، باب من حبسه العذر عن الغزو . رقم ٢٨٣٩ ، وأبو داود ٢١٤٧ ، وابن ماجة ٢٧٥٤ .

[٣٠] – الضحّ : الشمس .

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ :" أولى لك يا أبا خيثمة "[31] . ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير "[32]

هذا وقد أشار إليها حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه بقوله :"...فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ ."

قصة قباء أُكَيْدِر بن عبد الملك صاحب دُومَة الجَنْدَل :

بعث رسول الله ﷺ في أثناء إقامته في تبوك خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، فأخذه خالد بن الوليد ، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد منه ، وبعث به إلى رسول الله ﷺ . فقد أخرج الإمام مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُبَّةٌ مِنْ سُنْدُسٍ وَكَانَ يَنْهَى عَنْ الْحَرِيرِ فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَنَادِيلَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ". [33]

الخمس التي أعطيها رسول الله ﷺ :

أخرج الإمام أحمد في مسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَاجْتَمَعَ وَرَاءَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَحْرُسُونَهُ حَتَّى إِذَا صَلَّى وَانْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ لَمُلِئَ مِنْهُ رُعْبًا وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ آكُلُهَا وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ أَكْلَهَا كَانُوا يُحْرِقُونَهَا وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسَاجِدَ وَطَهُورًا أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانُوا

---

[31] – أولى لك : أي ويل لك ، وأصله أولاك الله ما تكرهه ، واللام مزيدة كما في " ردف لكم ". أو أولى لك الهلاك . تفسير أبي السعود ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ٧٩٨/٥ .

[32] – سيرة ابن هشام ١٧٤/٤–١٧٥ .

[33] – أخرجه الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل سعد بن معاذ ، حديث رقم ٤٥١٥ ، والنسائي في كتاب الزينة باب لبس الديباج المنسوج بالذهب ، ١٩٩/٨ ،رقم الحديث ٥٢٠٧ ، وأحمد في المسند ١١١/٣ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٥/٦ ، ومن طرق أخرى عن أنس رضي الله عنه أيضاً عند الترمذي في اللباس ، باب ٣ ، حديث رقم ١٧٢٣ ، وأحمد في فضائل الصحابة حديث رقم ١٤٩٥ .

وأخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب مناقب سعد بن معاذ ، رقم ٣٨٠٢ ،وفي كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنا مخلوقة ، رقم الحديث ٣٢٤٩ ، ومسلم أيضا في فضائل الصحابة باب فضائل سعد بن معاذ حديث رقم ٤٥١٤ ، والترمذي في كتاب المناقب ، باب مناقب سعد بن معاذ رقم الحديث ٣٧٨٢ ، وابن ماجة في المقدمة باب فضل سعد بن معاذ رقم الحديث ١٥٣ ، وابن سعد في الطبقات ٤٣٥/٣ كلهم عن البراء رضي الله عنه .

يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ قِيلَ لِي سَلْ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ".[34]

قصة وفاة ذي البجادين ، ونزول الرسول ﷺ في قبره :

قال ابن اسحاق: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، أن عبد الله بن مسعود كان يحدث ، قال : قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال : فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر ، قال : فأتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين[35] المزني قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ في حفرته ، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ، وهو يقول : " أدنيا إلي أخاكما " فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه قال : " اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه " . قال : يقول عبد الله بن مسعود : ياليتني كنت صاحب الحفرة .[36]

وفود ملك أيلة على رسول الله ﷺ :

مصداق ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ فَأَتَيْنَا وَادِيَ الْقُرَى عَلَى حَدِيقَةٍ لِامْرَأَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْرُصُوهَا فَخَرَصْنَاهَا وَخَرَصَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ وَقَالَ أَحْصِيهَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَانْطَلَقْنَا حَتَّى قَدِمْنَا تَبُوكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَتَهُبُّ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئٍ وَجَاءَ رَسُولُ ابْنِ الْعَلْمَاءِ صَاحِبِ أَيْلَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ وَأَهْدَى لَهُ بَغْلَةً بَيْضَاءَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْدَى لَهُ بُرْدًا ثُمَّ أَقْبَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا وَادِيَ الْقُرَى فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَةَ عَنْ حَدِيقَتِهَا كَمْ بَلَغَ ثَمَرُهَا فَقَالَتْ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي مُسْرِعٌ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَلْيُسْرِعْ

---

[34] – أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٢٢/٢ ، وقال الهيثمي في المجمع رواه أحمد ، ورجاله ثقات كما جاء في الفتح الرباني ٢٠٠/٢١ . وللحديث شواهد كثيرة عند البخاري في الصحيح كتاب التيمم باب قول الله تعالى:" فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً " رقم الحديث ٣٣٥ ، وفي كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، رقم الحديث ٤٣٨ ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب (بدون) رقم الحديث ٨١٠ ، والنسائي في كتاب الغسل والتيمم ، باب التيمم بالصعيد رقم الحديث ٤٢٩ .

[35] – قال ابن هشام :" وإنما سمي ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه ، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره . والبجاد : الكساء الغليظ الجافي ، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريباً منه شق بجاده باثنين ، فاتَّزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فقيل له ذو البجادين لذلك . والبجاد أيضاً : المِسْحُ . سيرة ابن هشام ١٨٣/٤ .

[36] – سيرة ابن هشام ١٨٣/٤ . وابن كثير في السيرة ٣٣/٤ . وأخرجه ابن مندة من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الإصابة ٣٣٠/٢ ترجمة رقم ٤٨٠ ، ونسبه الحافظ أيضاً إلى البغوي وأعله بالانقطاع . قال الأستاذ أبراهيم العلي صاحب صحيح السيرة النبوية ، طبعة أولى ١٩٩٥م ، دار النفائس ، ص٤٧٦ :" وسند ابن مندة جيد".

مَعِيَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَمْكُثْ فَخَرَجْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ وَهُوَ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ خَيْرَ دُورِ الْأَنْصَارِ دَارُ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ثُمَّ دَارُ بَنِي سَاعِدَةَ وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ فَلَحِقَنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ أَبُو أُسَيْدٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيَّرَ دُورَ الْأَنْصَارِ فَجَعَلَنَا آخِرًا فَأَدْرَكَ سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَيَّرْتَ دُورَ الْأَنْصَارِ فَجَعَلْتَنَا آخِرًا فَقَالَ أَوَ لَيْسَ بِحَسْبِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ الْخِيَارِ [٣٧].

إرساله ﷺ إلى قيصر الروم :

أخرج ابن حبان رحمه الله من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :" من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟" ، فقال رجل من القوم : وإن لم يقتل ؟ قال : وإن لم يقتل . فانطلق الرجل به فوافق قيصر ، وهو يأتي بيت المقدس قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره ، فرمى بالكتاب على البساط وتنحى . فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه ثم دعا رأس الجاثليق[٣٨] وأقرأه فقال : ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك – فنادى قيصر : من صاحب الكتاب ؟ فهو آمن ، فجاء الرجل فقال : إذا قدمت فأتني فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت ، ثم أمر منادياً فنادى : إلا ان قيصر تبع محمداً وترك النصرانية .

فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ : قد ترى أني خائف على مملكتي ، ثم أمر منادياً فنادى : إلا إن قيصر قد ﷺ عنكم ، وإنما اختبركم لينظر كيف صبركم على دينكم فارجعوا ، فانصرفوا .

وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ :إني مسلم ، وبعث إليه بدنانير ، فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب :"كذب عدو الله ، ليس بمسلم وهو على النصرانية " ، وقسم الدنانير"[٣٩] .

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ قَالَ لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ رَسُولَ هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِمْصَ وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ بَلَغَ الْفَنَدَ أَوْ قَرُبَ فَقُلْتُ أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ فَقَالَ بَلَى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبُوكَ فَبَعَثَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى هِرَقْلَ فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا قِسِّيسِي الرُّومِ وَبَطَارِقَتَهَا ثُمَّ أَغْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَابًا فَقَالَ قَدْ نَزَلَ هَذَا الرَّجُلُ

[٣٧] – أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة ، باب خرص التمر ٣٤٣/٣ ، ومسلم في صحيحه واللفظ له في كتاب الفضائل باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ١٧٨٥/٤ .

[٣٨] – مقدم الأساقفة عند النصارى .

[٣٩] – أخرجه ابن حبان كما في موارد الظآن رقم ١٦٢٨ ، وسنده صحيح .

حَيْثُ رَأَيْتُمْ وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَدْعُونِي إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ يَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا وَالْأَرْضُ أَرْضُنَا أَوْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ الْحَرْبَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ فِيمَا تَقْرَءُونَ مِنْ الْكُتُبِ لَيَأْخُذَنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ فَهَلُمَّ نَتَّبِعْهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ نُعْطِيهِ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا فَنَخَرُوا[٤٠] نَخْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَدَعَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ نَكُونَ عَبِيدًا لِأَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنْ الْحِجَازِ فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ أَفْسَدُوا عَلَيْهِ الرُّومَ رَفَأَهُمْ[٤١] وَلَمْ يَكَدْ وَقَالَ إِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لَكُمْ لِأَعْلَمَ صَلَابَتَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ ثُمَّ دَعَا رَجُلًا مِنْ عَرَبِ تُجِيبَ كَانَ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ فَقَالَ ادْعُ لِي رَجُلًا حَافِظًا لِلْحَدِيثِ عَرَبِيَّ اللِّسَانِ أَبْعَثْهُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِجَوَابِ كِتَابِهِ فَجَاءَ بِي فَدَفَعَ إِلَيَّ هِرَقْلُ كِتَابًا فَقَالَ اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَمَا ضَيَّعْتُ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ انْظُرْ هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ وَانْظُرْ إِذَا قَرَأَ كِتَابِي فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ وَانْظُرْ فِي ظَهْرِهِ هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيبُكَ فَانْطَلَقْتُ بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ مُحْتَبِيًا عَلَى الْمَاءِ فَقُلْتُ أَيْنَ صَاحِبُكُمْ قِيلَ هَا هُوَ ذَا فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ ثُمَّ قَالَ مِمَّنْ أَنْتَ فَقُلْتُ أَنَا أَحَدُ تَنُوخَ قَالَ هَلْ لَكَ فِي الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ قُلْتُ إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ لَا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَضَحِكَ وَقَالَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ يَا أَخَا تَنُوخَ إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْرَى فَمَزَّقَهُ وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزِّقٌ مُلْكَهُ وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ[٤٢] بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ وَمُخْرِقٌ مُلْكَهُ وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْسًا مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ قُلْتُ هَذِهِ إِحْدَى الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي وَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلًا عَنْ يَسَارِهِ قُلْتُ مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمْ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ قَالُوا مُعَاوِيَةُ فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فَأَيْنَ النَّارُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبْحَانَ اللَّهِ أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ قَالَ فَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهُ فِي جِلْدِ سَيْفِي فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي قَالَ إِنَّ لَكَ حَقًّا وَإِنَّكَ رَسُولٌ فَلَوْ وُجِدَتْ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ جَوَّزْنَاكَ بِهَا إِنَّا سَفْرٌ[٤٣] مُرْمِلُونَ قَالَ فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ قَالَ أَنَا أُجَوِّزُهُ فَفَتَحَ رَحْلَهُ فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ صَفُورِيَّةٍ فَوَضَعَهَا فِي حَجْرِي قُلْتُ مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ قِيلَ لِي عُثْمَانُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّكُمْ يُنْزِلُ هَذَا الرَّجُلَ فَقَالَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَا فَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ

---

٤٠ – نخروا : أي تكلموا كلام رجل واحد ، وكأنه كلام مع غضب ونفور حملهم على أن يخرجوا من برانسهم .

٤١ – رفأهم : سكنهم ودعا لهم .

٤٢ – هذا نجاشي آخر غير النجاشي الذي أسلم ومات وصلى النبي ﷺ عليه .

٤٣ – إنا سفر : أي مسافرون نفذ زادنا .

تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِمًا فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَحَلَّ حَبْوَتَهُ[٤٤] عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ هَاهُنَا امْضِ لِمَا أُمِرْتَ لَهُ فَجُلْتُ فِي ظَهْرِهِ فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ الْكَتِفِ[٤٥] مِثْلِ الْمحجمَةِ[٤٦] الضَّخْمَةِ[٤٧]

استقبال النبي ﷺ عند ثنية الوداع :

لما عاد رسول الله ﷺ من معركة تبوك ، خرج إليه الصحابة والجواري والصبيان ينشدون المشهور :

طلع البدر علينا | من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا | ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا | جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة | مرحباً يا خير داع

ويخطئ كثير من الناس ، عندما يظنون أن أهل المدينة قد خرجوا يستقبلون النبي ﷺ عند وصوله المدينة المنورة في هجرته الميمونة . يقول ابن قيم الجوزية في زاد المعاد :" وبعض الرواة يهم في هذا ، ويقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة . وهو وهم ظاهر . لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام ، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام ."[٤٨]

أخرج الإمام البخاري رحمه الله عن السَّائِب بْن يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الصِّبْيَانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ [٤٩]

حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه:

أخرج الإمام البخاري رحمه الله حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه مطولاً ، فسقته كما هو لما فيه من فوائد جمة . قال البخاري رحمه الله :"حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ

[٤٤] – حل حبوته : ألقى بردة كانت على ظهره .

[٤٥] – عضون الكتف : مكاسر الجلد .

[٤٦] – المحجمة الضخمة : الآلة التي يجتمع بها دم الحجامة عند المص .

[٤٧] – أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٤١/٣–٤٤٢ ، وقال ابن كثير في السيرة ٢٧/٤–٢٩ : هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به تفرد به الإمام أحمد . وأورده الهيثمي بنصه في المجمع وقال : رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى ، ورجال أبي يعلى ثقات ، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك ٢٣٤/٨–٢٣٦ . انظر عبدالله بن أحمد في زوائد على المسند ٧٥/٤ ، وأبو يعلى حديث رقم ١٥٩٧ .

[٤٨] – زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٢٠/٣ .

[٤٩] – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب استقبال الغزاة ، حديث رقم ٣٠٨٣ ، وفتح الباري ١٩١/٦ ، وأبو داود في كتاب الجهاد في التلقي حديث رقم ٢٣٩٨بنحوه ، والترمذي في كتاب الجهاد عن رسول الله ﷺ ، باب في تلقي الغائب إذا قدم رقم الحديث ١٦٤٠ ، والإمام أحمد في المسند ٤٤٩/٣رقم الحديث ١٥١٦٣ ، والبيهقي ١٧٥/٩ .

سَرْحٍ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ أَخْبَرَنِي ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ ثُمَّ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَهُوَ يُرِيدُ الرُّومَ وَنَصَارَى الْعَرَبِ بِالشَّامِ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ كَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي قَالَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ قُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ قَالَ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي قَالَ وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ قَالَ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ قَالَ فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنْ

الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ فَقَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ فَقُلْتُ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ قَالَ فَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَيَقُولُ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ قَالَ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ قَالَ وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ بِهِ وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى بَلَغَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قَالَ كَعْبٌ وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ اللَّهُ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنْ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ و حَدَّثَنِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ حَدَّثَنَا حُجَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ بِإِسْنَادِ يُونُسَ عَنْ الزُّهْرِيِّ سَوَاءً .[٥٠]

وفي رواية أخرى عند الإمام البخاري : " عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ غَيْرَ غَزْوَتَيْنِ غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ وَغَزْوَةِ بَدْرٍ قَالَ فَأَجْمَعْتُ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضُحًى وَكَانَ قَلَّمَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ سَافَرَهُ إِلَّا ضُحًى وَكَانَ يَبْدَأُ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِي وَكَلَامِ صَاحِبَيَّ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ غَيْرِنَا فَاجْتَنَبَ النَّاسُ كَلَامَنَا فَلَبِثْتُ كَذَلِكَ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ الْأَمْرُ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكُونَ مِنْ النَّاسِ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يُصَلِّي وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ تِيبَ عَلَى كَعْبٍ قَالَتْ أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ قَالَ إِذًا يَحْطِمَكُمْ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ إِذَا اسْتَبْشَرَ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ الْقَمَرِ وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا عَنْ الْأَمْرِ الَّذِي قُبِلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَذَرُوا حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ لَنَا التَّوْبَةَ فَلَمَّا ذُكِرَ

---

[٥٠] – البخاري في صحيحه في كتاب المغازي في باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل (سورة التوبة ، آية ١٨) " وعلى الثلاثة الذين خلفوا " ١١٣/٨ ، والإمام مسلم في صحيحه واللفظ له ، في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢١٢٠/٤ .

الَّذِينَ كَذَبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ وَاعْتَذَرُوا بِالْبَاطِلِ ذُكِرُوا بِشَرٍّ مَا ذُكِرَ بِهِ أَحَدٌ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ" الْآيَةَ[٥١]

قول الشهيد سيد قطب رحمه الله :"وكان لغزوة تبوك أثر معنوي ضخم ، صحيح أنه لم يجر فيها قتال ولا طعان ، ولكن هذه القوة التي وصفها الله تعالى (.. ترهبون به عدو الله وعدوكم ...)[٥٢] قد أدَّت مفعولها . فإذا ركائز النصرانية في أرض العرب تأتي لتسالم النبي ﷺ ، ويأتي وقد أيلة ممثلاً للنصارى في جزيرة العرب يعلن مهادنته لدولة الإسلام ، وكما ورد في المصالحة أنه يشمل من كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . كما صادف وصول رسول قيصر إمبراطور الروم إلى تبوك ليعلن نفس الهدنة ، وبذلك دانت جزيرة العرب كافة للإسلام .

ليس مهمة القوة في الإسلام أن تدمر وتقتل وتسفك ، إنها القوة الرادعة المرهوبة الجانب التي تمكن الحرية للناس فيعبدون الله كما يشاؤون ، هي القوة التي تلجم الطغاة الذين يريدون فتنة الناس عن دين الله. ولا بدَّ أن يدرك الدعاة إلى الله أن طريقهم حتى يؤتي ثماره ، ويحقق جناه ، لا بد أن ينتهي إلى ما نتهى إليه الجيل الأول ، وتكون دولة الإسلام المرهوبة الجانب هي التي تحمي الدعاة في كل أرض ، وتمكن الناس من وصول شريعة الله إليهم ، والتمتع بثمار حكمها في الأرض . والدعوة التي لا بسير على منهج النبوة لن تصل إلى ما تريد ، فلن يحق الحق وبيطل الباطل إلا بالقوة التي تقعل ذلك :" ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون".[٥٣]

فوائد قصة الذين خُلِّفوا :

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ": وفي قصة كعب من الفوائد غير ما تقدم ــ أي في أثناء شرح الحديث – :

جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب ، وجواز الغزو في الشهر الحرام ، والتصريح بجهة الغزو إذا لم تقتض المصلحة ستره ، وإن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير ولحق اللوم بكل فرد لو تخلف .

[٥١] – البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير باب " وعلى الثلاثة الذين خلفوا" إلى قوله " إن الله هو التواب الرحيم " ٣٤٢/٨ . ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه حديث رقم ، وأبو داود في الأيمان والنذور باب فيمن نذر أن يتصدق بماله ، والنسائي في الطلاق باب الحقي بأهلك ١٥٢/٦ مختصراً جداً ، وأحمد في المسند ٤٥٦/٣–٤٥٩ ، عبدالرزاق في المصنف حديث رقم ٩٧٤٤ ، وابن أبي شيبة في المصنف رقم ١٨٨٥٣ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٧٣/٥–٢٧٩ .

[٥٢] – سورة الأنفال رقم الآية ٦٠ .

[٥٣] – سورة الأنفال رقم الآية ٨ .

وقال السهيلي : إنما اشتد الغضب على من تخلف ، وإن كان الجهاد فرض كفاية ، لكنه في حق الأنصار خاصة فرض عين ، لأنهم بايعوا على ذلك ، ومصداق ذلك قولهم وهم يحفرون الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة ، لأنها كالنكث لبيعتهم ، كذا قال ابن بطال . قال السهيلي : ولا أعرف لها وجهاً غير الذي قال .

قلت : وقد ذكرت وجهاً غير الذي ذكره ولعله أقعد ، ويؤيده قوله تعالى :" ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله " الآية . وعند الشافعية وجه أن الجهاد كان فرض عين في زمن النبي ﷺ ، فعلى هذا فيتوجه العتاب على من تخلف قطعاً ، وفيها أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا لوم عليه ، واستخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضعفة .

وفيها ترك قتل المنافقين ، ويستنبط منه قتل الزنديق إذا أظهر التوبة . وأجاب من أجازه بأن الترك كان في زمن النبي ﷺ لمصلحة التأليف على الإسلام .

وفيها عظم أمر المعصية ، وقد تبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال : يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً ، ولا سفكوا دماً حراماً ، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر ؟!

وفيها أن القوي في الذين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين ، وجواز إخبار المرء عن تقصيره ، وتفريطه ، وعن سبب ذلك وما آل غليه أمره تحذيراً ويضمه لغيره ، وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة ، وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره ، وفضل أهل بدر والعقبة ، والحلف للتأكيد من غير استحلاف ، والتورية عن المقصد ، ورد الغيبة ، وجواز ترك وطء الزوجة مدة .

وفيه أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها ، ولا يسوف بها لئلا يحرمها كما قال تعالى : " استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه " . ومثله قوله تعالى :" ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ". ونسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته ، وأن لا يسلبنا ما خولنا من نعمته .

وفيها جواز تمني ما فات من الخير ، وأن الإمام لا يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور ، بل يذكره ليراجع التوبة ، وجواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية لله ورسوله ، وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلطه .

وفيها أن المستحب للقادم أن يكون على وضوء ، وأن يبدأ بالمسجد قبل بيته ، فيصلي ثم يجلس لمن يسلم عليه ، ومشروعية السلام على القادم وتلقيه ، والحكم الظاهر ، وقبول المعاذير واستحباب بكاء العاصي أسفاً على ما فاته من الخير ، وفيها إجراء الأحكام على الظاهر ، ووكول السرائر إلى الله تعالى ، وفيها ترك السلام على من أذنب ، وجواز هجره أكثر من ثلاث ، وأما النهي

عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً . ومعاتبة الكبير أصحابه ومن يعز عليه دون غيره ، وفيها فائدة الصدق وشؤم عاقبة الكذب .

وفيها العمل بمفهوم اللقب إذا حفته قرينة ، لقوله ﷺ لما حدثه كعب " أما هذا فقد صدق " فإنه يشعر بأن من سواه كذب ، لكن ليس على عمومه في حق كل أحد سواه ، لأن مرارة وهلال أيضاً قد صدقا فيختص الكذب بمن حلف واعتذر لا بمن اعترف ، ولهذا عاقب من صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قرب ، وأخر من ك١ب للعقاب الطويل . وفي الحديث الصحيح " إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا ، وإذا أراد به شراً أمسك عنه عقوبته فيرد القيامة بذنوبه ". وقيل إنما غلظ في حق هؤلاء الثلاثة لأنهم تركوا الواجب عليهم من غير عذر ، ويدل عليه قوله تعالى " ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله " وقول الأنصار :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وفيها تبريد حر المصيبة بالتأسي بالنظير ، وفيها عظم مقدار الصدق في القول والفعل ، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به ، وأن من عوقب بالهجر يعذر عن التخلف عن صلاة الجماعة ، لأن مرارة وهلالاً لم يخرجا من بيوتهما تلك المدة ، وفيها سقوط السلام على المهجور عمن سلم عليه ، إذ لو كان واجباً لم يقل كعب : هل حرك شتيه برد السلام ، وفيها جواز دخول المرء دار جداره أو صديقه بغير إذنه ، ومن غير الباب إذا علم رضاه .

وفيها أن قول المرء الله ورسوله أعلم ، ليس بخطاب ولا كلام ولا يحنث به من حلف أن لا يكلم الآخر إذا لم ينو به مكالمته دائماً . وإنما قال أبو قتادة ذلك لما ألح عليه كعب ، وإلا فقد تقدم أن رسول ملك غسان لما سأل عن كعب ، جعل الناس يشيرون له إلى كعب ، ولا يتكلمون بقولهم مثلاً هذا كعب ، ولاى يتكلمون بقولهم مثلا هذا كعب مبالغة في هجره والإعراض عنه .

وفيها أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها ، وإيثار طاعة الرسول على مودة القريب ، وخدمة المرأة زوجها ، والاحتياط لمجانبة ما يخشى الوقوع فيه ، وجواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة .

وفيها مشروعية سجود الشكر والاستباق إلى البشارة بالخير وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة وتهنئة من تجددت له نعمة ، والقيام إليه إذا أقبل ، واجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة ، وسروره بما يسر أتباعه ، ومشروعية العارية ، ومصافحة القادم والقيام له ، والتزام المداومة على الخير الذي ينتفع به ، واستحباب الصدقة عند التوبة ، وأن من نذر الصدقة بكل ما له لم يلزمه إخراجه جميعه ."[٥٤]

[٥٤] – فتح الباري ٨/١٢٣-١٢٤ .

يقول الأستاذ سعيد حوى رحمه الله : " بعد سير طويل لم يبق فيه لأحد حجة ، أصبح الحساب عسيراً ، فما لم يكن يحاسب عليه الصف لم يعد يتحمل من الصف ، ولم يعد يتساهل فيه . فيوم أحد انفصل ثلث الجيش ولم يحاسب رسول الله ﷺ أحداً ولم يعاقبه ، ولكنه ههنا حاسب وعاقب كما فعل بكعب وزميليه ... ومن ههنا نأخذ درساً وهو أن الصف الإسلامي عندما يكون مريضاً أو ضعيفاً لا ينبغي أن يتشدد بالحساب ، وإنما عليه في هذه الحالة أن يعلج أزمة الثقة وأن يحسن التخطيط والانتقال من الطور الأدنى إلى ما هو أعلى .

من خلال غزوة تبوك ونزول سورة براءة فيها ندرك أن الجهاد هو المحل ، فهو المحك لإيمان الأشخاص ، وهو المحك لنضج الصف ، وهو المحك للحالة التي وصلت إليها الأمة .

بغزوة تبوك نقل رسول الله ﷺ الصراع من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها ، وهي السياسة التي سيتابعها أبو بكر وعمر وعثمان حتى حدوث الفتنة . — وليس كزعماء الأمة العربية والإسلامية اليوم إذ ينقلون الأعداء إلى أراضيهم ليكونوا لهم عزاً ودرعاً ، فإذا بهم ينقلبون همًّا وردعاً — وهذه السياسة – نقل المعركة إلى الخارج – تحقق أكثر من هدف بآن واحد : شَغْلُ الناس بالعدو الخارجي ، وفي الوقت نفسه تربية الصف وإنضاجه وتفتيح آفاقه من خلال الجهاد ، فهناك رسالة لشعب يجب أن يؤديها .